عولمة القهر : الولايات المتحدة والعرب والمسلمون

أمين ، جلال

عولمة القهر : الولايات المتحدة والعرب والمسلمون قبل وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ / جلال أمين . - القاهرة : دار الشروق ، ٢٠٠٢. - ١٨٩ ص؛ ٢٥ سم.

عرض

م. أحمد مصطفى البحيرى

يبدأ المؤلف كتابه بتحديد معنى العولمة كما يفهمها، وهو تضاؤل المسافات بين الشعوب سواء فيما يتعلق بانتقال السلع والخدمات والعمالة ورأس المال، أو فيما يتعلق بانتقال الأفكار وأنماط السلوك والقيم. وبناءً على ذلك يقرر أنه من الطبيعى أن الإنسان قد سعى لذلك منذ القدم، وأنه وإن تصاعدت معدلات العولمة منذ سنوات، إلا إن هناك تصاعدًا سابقًا قد حدث مع حركة الكشوف الجغرافية منذ خمسة قرون ومع حركات الاستعمار القديمة والحديثة.

ويقرر المؤلف أن للعولمة منافع وأضرارا فهى ليست دائما شيئا ممتازا، وأن المسألة تتوقف على طبيعة ما يجرى عولمته والأطراف المستفيدة من ذلك. كما يقرر أن اختيار نواحى الحياة التى يتم عولمتها والنواحى الأخرى التى تترك جانبا يتوقف على اختيارات القوى المستفيدة. ثم ينتهى المؤلف بعد إيراد بعض الأمثلة إلى أن هناك عولمة للضرب والقهر وعولمة للتفاهم والتسامح. وكما يبدو من عنوان الكتاب فإن المؤلف قد اختار أن يكتب عن عولمة القهر وهى فى رأيه، العولمة التى يجرى تطبيقها حاليا.

الكتاب بعد ذلك التقديم، ينقسم إلى قسمين وخاتمه:-

القسم الأول يتعامل مع العولمة كما كانت تبدو قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١، والقسم الثانى يتعامل مع الأمر بعد تلك الأحداث، أما الخاتمة فهى عبارة عن محاولة للنظر إلى العولمة فى إطار تاريخى أوسع، أى عبر خمسة قرون كاملة لاستشراف المستقبل بالنسبة للعالم وللعرب.

ويتكون القسم الأول من خمسة فصول ويستغرق حوالى ٦٤ صفحة ويتناول فصله الأول - الذى نشر قبل ذلك مرتين أولهما فى عام ١٩٩٨ - فكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية قد سبق لها أن استخدمت سلاح اتهام الحركات الوطنية فى البلاد العربية والإسلامية بالشيوعية نظرا لما عنته هذه التهمة من اتهام تلقائى بالإلحاد، وهى تقوم الآن باتهام هذه الحركات بالإرهاب النابع من

الأصولية الدينية، وفى كلتا الحالتين فإن الولايات المتحدة الأمريكية معنية فقط بإدانة هذه الحركات أمام الرأى العام فى تلك البلاد، وتخويف الناس والحكومات منها، وذلك بغرض تحقيق مصالحها المباشرة ومصالح إسرائيل. ويعترض المؤلف على موقف بعض الكتاب والمثقفين المصريين الذين انضموا إلى الولايات المتحدة فى حملتها الدعائية الضارية والمتحيزة؛ إذ إنها لا تفرق بين أعمال العنف والإجرام التى تنسب إلى الإسلام، وبين أى حركة سياسية تدعو إلى تطبيق المبادئ والشريعة الإسلامية، وبين محض التدين وممارسة الفروض الدينية اليومية.

ويتعرض المؤلف فى الفصل الثانى إلى العلاقة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية فيقرر أن احتلال سيناء فى عام ١٩٦٧ قد أصاب السياسة المصرية بالشلل سواء فيما يخص العلاقة مع العالم الخارجى، أو على مستوى العلاقة مع العالم العربى، أو فيما يخص السياسة الداخلية. ثم جاءت فترة السبعينيات لتكون بالنسبة للولايات المتحدة وإسرائيل هى فترة جمع ثمار احتلال سيناء فى أربعة مجالات أساسية. هى علاقة مصر بإسرائيل وبالعرب، وبالعالم، بالإضافة إلى سياسة مصر الاقتصادية. وبعد أن استعرض بعض ملامح السياسات والمواقف المصرية فى المجالات الأربع، ينتهى إلى أننا باعتبارنا مصريين يجب أن نعترف بأن بلادنا هى فى الواقع مستعمرة أمريكية.

وفى الفصل التالى يتناول المؤلف حادث الطائرة المصرية التى سقطت قرب سواحل الولايات المتحدة يوم ٣١ أكتوبر ١٩٩٩، ويتخذ من بعض ما أعقبه من أحداث مثالا على الموقف المتحيز للغرب من الإسلام لدرجة أن عبارة «توكلت على الله» التى نطق أحد طيارى الطائرة فى لحظات السقوط - وهو مصرى مسلم - فهمت بمعنى: «لقد قررت الانتحار وقتل ٢١٦ شخصا آخر معى». كما يتخذ من بعض تلك الأحداث مثالا صارما على سطوة وسائل الإعلام على عقول الناس وكيف تحولت إلى وسائل لتحقيق مصالح أنانية لقوى اقتصادية علنية، هى شركة بوينج فى هذه الحالة، التى استهدفت، بكافة السبل، الدفاع عن سمعتها كصانع للطائرات.

وفى الفصل الرابع المعنون: «الخطاب الرسمى للعولمة» يتعرض المؤلف لبعض المفاهيم التى ابتدعت لوصف للمرحلة التى أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية كلها مثل «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» و«العولمة»، ويخرج من ذلك بأن تعبير العولمة كان أقوى التعبيرات التى ابتدعت وأكثرها مناسبة لمصالح المنتصرين. ويخصص المؤلف باقى هذا الفصل لتقديم مثال على الأساليب التى لجأت إليها وسائل الإعلام الأمريكى للترويج لهذه العولمة. فيعرض لكتاب نشر فى عام ١٩٩٩ ألفه السيد توماس فريدمان محرر الشئون الخارجية فى جريدة نيويورك تايمز واسم الكتاب هو: «السيارة لكساس وشجرة الزيتون: محاولة لفهم العولمة». كما يعرض لندوة حضرها السيد فريدمان فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ويختلف مؤلفنا مع مفهوم العولمة الذى تروج له وسائل الإعلام حاليا ويرى إن الأسئلة الهامة لا يتم التعرض لها بينما تقدم إجابات سطحية لأسئلة غير

هامة. كما يرى أن دعوى العولمة كما تقدم للشعوب العربية تزخر بالإضافة إلى المعنى العام الذى يقدم للعالم، بمعنى خاص هو ضرورة التصالح مع إسرائيل وقبولها كما هى.

«انتفاضة سياتل أو العولمة المضادة» كان ذلك هو عنوان الفصل الخامس الذى يتناول فى بدايته الجهود التى بذلتها الدول الصناعية الكبرى، وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية لاجتياح مختلف الحواجز التى تقف فى وجه التجارة الدولية وحركات رءوس الأموال فيما بين الدول الصناعية بعضها البعض، أو بين هذه الدول ومناطق العالم الأقل نموا والأكثر فقرا. ثم يراجع المؤلف ما يتم التغنى به من مزايا لمبدأ حرية التجارة، ويبرز ثلاثة نقائض أساسية تقليدية لهذا المبدأ ويعتبرها مسئولة عن إثارة مشاعر الغضب لدى طوائف كثيرة فى مختلف البلاد، ومن ضمن هذه الطوائف العمال الأمريكيون الذين يخشون البطالة نتيجة للمنافسة التى تمثلها المنتجات الأجنبية لما ينتجونه هم داخل بلادهم. ثم يتعرض المؤلف لما حدث فى مدينة سياتل الأمريكية من احتجاجات ومسيرات ضد العولمة صاحبتها أحداث عنف أدت إلى انهيار الاجتماع الذى عقد هناك كأحد جولات جهود تحرير التجارة الدولية. ويصرح المؤلف بأن ما حدث هناك قد أثلج صدره، لكنه يورد ثلاثة تحفظات تحد من غبطته: التحفظ الأول يتعلق بتضارب المصالح بين مختلف الفئات التى تعارض العولمة حاليا بحيث لو قدر لهم أن يجلسوا يوما لرسم صورة المستقبل المنشود لاستحال أن يتفقوا على أى شىء على الإطلاق. أما التحفظ الثانى فيتعلق بأن تضارب المصالح بين أوروبا وأمريكا واليابان كان له دور هام فى إفساد اجتماع سياتل، ولكن الظالمين - كما يقول المؤلف - سرعان ما يسوون خلافاتهم. وينبع التحفظ الثالث من خاطر لدى المؤلف ينبع من استقراء تجارب الماضى ويدفعه إلى الاعتقاد بأن فى جعبة الرأسمالية أدوات وحيل تستطيع بها أن تجدد نفسها، أو حتى تكتفى بتجميل وجهها، فتحقق النصر على معارضيها وتجتاز ما يقابلها من عقبات دون أن تتخلى تماما عن مواقفها. لكن المؤلف يتمسك بالتعبير عن تفاؤله لأن السخط على الرأسمالية يمتد، أكثر منه فى أى وقت مضى، إلى جوهر النظام نفسه وليس فقط إلى مجرد كيفية توزيع عوائد النشاط الاقتصادى. لكن الجملة الأخيرة فى هذا الفصل تشير إلى أن ما حدث فى سبتمبر ٢٠٠١ قد أضعف بشدة هذه الآمال.

ويتكون القسم الثانى من ثمانية فصول ويستغرق حوالى ٦٥ صفحة.

والفصل الأول من هذا القسم يتعرض لما أسماه المؤلف بدواعى الحزن والخوف والسخرية التى سببتها أحداث سبتمبر ٢٠٠١. أما الحزن فهو على آلاف الضحايا، وأما الخوف فهو من رد الفعل المتوقع لأمريكا التى هاجت وماجت وتركت العنان لغضبها، فراحت تلعن الجميع وتهدد الجميع وتتسرع فى توجيه الاتهامات. والخوف أيضا لأن العالم قد أصبح فجأة مكانا غير مأمون. وأما السخرية فتأتى من تأمل ردود الفعل الأمريكية المتخبطة والمتسرعة فى الأوقات التى تلت

صراحته المعهودة ، فيكاد أن يشير إلى يد أجنبية محددة ، لكنه لا ينطق بالاسم . ثم يستعرض المؤلف بسرعة تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام ، فيقرر أنه خلال سبعة القرون التى انقضت منذ آخر الحروب الصليبية لم تكن النظرة الأوروبية للعرب والمسلمين دائما نظرة استعلاء واحتقار ، بل كثيرا ما كانت نظرة إعجاب . حتى بعد تراجع قوة المسلمين ، خلال القرنين الأخيرين ، فإن المصريين والعرب عموما عوملوا بطريقة معقولة من قبل الغرب ، وبأفضل مما عوملت به شعوب أخرى . لكن هذه العلاقة تدهورت بسرعة واشتدت الحملة العنصرية فى الغرب ضد العرب والمسلمين منذ أن نشأت دولة إسرائيل . أما مسئولية العرب والمسلمين عما يحدث تجاههم فهى أنهم ضعفاء ، والضعيف ، فى رأى المؤلف - هو الذى يغرى الآخرين باحتقاره .

وفى الفصل الأخير من هذا القسم يبدأ المؤلف بالتعبير عن غضبه عندما يرى الإهانات توجه إلى دينه وقومه لتبرر أهدافا دنيوية حقيرة تتعلق فى نهاية الأمر بتمكين الأمريكى والأوروبى من تسيير سيارته بنفقة أقل ، ويعبر عن سخريته ؛ لأن هناك من فهم أن هذا الموقف تجاه العرب والمسلمين قد نبع مما أطلق عليه «صراع الحضارات» ، أو بالتالى فهو أمر يمكن معالجته بعقد مؤتمر لمناقشة ما أطلق عليه «حوار الحضارات» مثلما فعلت جامعة الدول العربية بعد شهرين من أحداث سبتمبر ٢٠٠١ . ويستعرض المؤلف باختصار فكرة «صراع الحضارات» ، وينتهى إلى أن محاولة الرد على فكرة «الصراع» بفكرة «الحوار» هى محاولة ساذجة ، فإن هناك مصالح مادية حقيقة تحرك الدول الصناعية ، وهذه الدول لن تكف حتى تحقق جميع مصالحها ، أما تخفى هذه الدول خلف دعاوى معنوية براقة فهذا أمر ورثته العولمة الحديثة عن الاستعمار القديم ، فقد كان خطاب الغرب دائما مختلفا تماما عن حقيقة أهدافه .

وتتكون الخاتمة من سبعة فصول وتستغرق حوالى ٣٣ صفحة . وفى خمسة الفصول الأولى منها يناقش المؤلف بعض الأفكار والشعارات التى قدمها الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتى لبقية العالم على أنها أفكار وشعارات عهد جديد يختلف تمامًا عن العصور السابقة ، وأنها ذات صحة مطلقة ، وستظل صالحة إلى الأبد كما كانت هى الأصلح فى الماضى . وهذه الأفكار والشعارات تتلخص فى القول بنهاية الأيديولوجيات ، وانتصار الديمقراطية السياسية (كما يعرفها الغرب) ، وأفضلية نظام الليبرالية الاقتصادية القائمة على إطلاق قوى السوق ، واحترام حقوق الإنسان (كما يحددها الغرب) ، وأفول السيادة الوطنية لصالح العولمة . وينقد المؤلف هذه الأفكار ، وينتهى إلى أن هذه الأفكار والشعارات نبعت فى الأساس من تجربة الغرب وهى تخصه فقط بالدرجة الأولى ، وليس لها أى قيمة مطلقة أو أزلية . فعندما يتكلم عن حقوق الإنسان فإنه يؤكد أن تحديد

هذه الحقوق سيختلف من مجمع إنسانى لآخر ، ومن ثقافة إنسانية أخرى ، تبعا لاختلاف الظروف الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية ، ومع اختلاف ما تدين به المجتمعات من ديانات ومذاهب . ومن ثم فلا يصح أن نفرض علي المجتمعات كافة معايير محددة عن حقوق الإنسان نبعت أساسا من المجتمع الغربى . وعندما يتكلم عن الليبرالية الاقتصادية القائمة على إطلاق قوى السوق فإنه يؤكد أنها نظام اقتصادى عابر كغيره من النظم التى عبرت من قبله ، وأن الأخذ به أو تركه يعتمد على الظروف العامة للمجتمع ، وأن الساسة والاقتصاديين ينادون به أو بعكسه تبعا لتغير الظروف .

وفى الفصل السادس يعرب المؤلف عن استعداده للاعتراف بنقائصه وعيوبه - باعتباره عربيا ومصريا - وعن استعداده للإقرار بأن أفكاره وتراثه وتاريخه وحاضره فيها كلها من العيوب ما يتطلب الإصلاح ، لكنه ليس على استعداد للتضحية بشخصيته وتقمص شخصية مختلفة وليست أفضل منه ، عن طريق التبنى الأعمى لأفكار وشعارات معينة . ويعترف المؤلف بأن العرب قد هزموا فى معركتهم مع الغرب ، ويستعرض موقف المثقفين العرب إزاء هذه الهزيمة فيقسمهم إلى ثلاثة أصناف : صنف يرفض الاعتراف بالهزيمة ، وصنف يعترف بها فى قرارة نفسه ويتظاهر ، نفاقا ، بأنه لا يعترف بها ، أما الصنف الثالث وهو أفضل الأصناف ، فى رأيه ، فيضم من يدركون أن العرب قد هزموا فى المعركة ، لكن الحرب لم تنته بعد ، ويأملون فى مستقبل غنى باحتمالات لا يمكن تصورها .

فى الفصل الأخير من الخاتمة (ومن الكتاب) يشرح المؤلف ما عناه بسؤاله عما بعد العولمة . ويبدأ القول بأن الخمسمائة عام الماضية التى يمكن اعتبارها عمر الحضارة الغربية الحديثة ، قد بدأت بالتجارة وانتهت بالتجارة . بدأت بالكشوف الجغرافية التى أرست أسس عولمة التجارة وانتهت بسقوط الكتلة الاشتراكية التى مثلت آخر معاقل المقاومة لهذه العولمة . وخلال هذه المدة كانت العوامل الاقتصادية دائما هى الأقوى تأثيرا على نواحى الحياة فى المجتمع الغربى كافة . ويطرح المؤلف فكرة مؤداها أن من المحتمل جدا أن يصيب الضعف والأفول هذه الصبغة الاقتصادية للحضارة الغربية الحديثة ؛ حيث قد نتج عن تعليب الاعتبارات الاقتصادية تراجع الاهتمام باعتبارات أخرى مثل الدين والأسرة والطبيعة ، مما سبب تزايد حركات رد الفعل والاحتجاج على ما يمكن تسميته بعصر الاقتصاد ، وهذه الحركات - فى رأى المؤلف - بوادر تسمح بالاعتقاد بأن العالم قد يكون على أبواب عصر لا تسيطر عليه الدوافع الاقتصادية . علينا إذن بوصفنا عربا ، أن لا نقدم على عمل يتضمن التخلى أو خيانة ثقافتنا القومية أو ديننا ، أو قيمنا الأخلاقية والجمالية لأنها ستكون مساهمتنا القيمة وسندنا فى عالم الغد . وكانت هذه هى وصية المؤلف فى آخر سطور كتابه .